يوسيفوس المؤرخ

حصاره في جبثاثا

ذكرنا في الجزء الماضي ان يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير جمع جنوده في مدينة جبثاثا [1] وكانت معقلاً حصيناً جداً وان اسبسيانوس القائد الروماني سار لقتاله فيها. ووعدنا ان نأتي على وصف ما وقع بينهما من المناوشات ملخصين ذلك مما كتبهُ يوسيفوس نفسهُ. وسنعتمد في هذا التلخيص على النسخة الانكليزيَّة الحديثة من تاريخ يوسيفوس التي نقلها العالم شلتو وطبعت سنة ١٨٩٠ . قال يوسيفوس متكلماً عن نفسهِ بضمير الغيبة

وسار اسبسيانوس إلى مدينة جدرا [2] فأخذها عنوةً لانهُ لم يكن فيها حامية كبيرة يدخلها ووضع السيف في اهلها فلم يبقِ على كبير ولا صغير لشدَّة كره الرومانيين لليهود واضرم النار فيها وفي رساتيقها وسبى من وجدهُ من السكان

وكان يوسيفوس قد لجأ الى طبرية لكي يتحصَّن فيها فخاف اهلها من ذلك لانهم قالوا انهُ لم يهرب من وجه الرومانيين الاَّ وقد قطع الرجاء من النجاة. وكانوا مصيبين في ذلك لان يوسيفوس علم ان الغلبة اخيراً للرومانيين لكنهُ فضَّل ان يهلك مع شعبهِ ولا يسلمهم الى اعدائهم تزلفاً اليهم. (هذا ما قالهُ هو عن نفسهِ وذكرهُ لهُ على هذه الصورة يدلُّ على انهُ يريد ان يتنصل من امر يرى نفسهُ ملوماً فيهِ). ثم كتب الى رؤساء الامة اليهوديَّة في اورشليم يخبرهم بقدوم الرومانيين وبما آلت اليهِ حال البلاد

وكان اسبسيانوس عازماً على هدم جبثاثا اذ بلغهُ ان اليهود تحصنوا فيها فسار عليها بخيلهِ ورجلهِ وكان الطريق وعراً كثير الصخور يعسر السير فيهِ على المشاة. ويطول على الفرسان فقدَّم رجالهُ الطريق اولاً. وبلغ يوسيفوس ذلك فبادر الى المدينة ووصل اليها قبلهُ. وبلغ اسبسيانوس ان يوسيفوس تحصن فيها فطابت نفسهُ وقال ان انا فتحت هذه المدينة الآن وقبضت على يوسيفوس دانت لي البلاد كلها وحسبت ان الغاية الاميَّة ماثلةٌ الى هذا السجن لكي يسهل القبض عليهِ. فبعث باحد قوادهِ ومعهُ الف فارس وامرهم ان يسرعوا ويحيطوا بالمدينة ثلاثا يهرب منها وبهم في اليوم التالي بكل جنودهِ ونصب خيامهُ شمالي المدينة على سبع غلوات

(١) رجح الزحالة الدكتور روبنصن انها كانت مبنية على التل المسمى الآن تل جفات

(٢) المعروفة الآن بام قيس حيث الخرائب الكثيرة التي ورد ذكرها في المقتطف غير مرة

منها لكي يرى سكانها عددهُ وعددهُ فتهلع قلوبهم و يتولاهم القنوط

واستولى الرعب على اليهود اولاً حتى لم يجسر احد منهم ان يخرج خارج الاسوار . ولم يهاجم الرومانيون المدينة حالاً لانهم كانوا تعابوا من مشقة الطريق ولكنهم حوَّطوها بسورين من الرجال وسور من الفرسان لكي يسدوا كل سبلها . وهذا اوقع اليهود في اليأس فزادوا جسارةً وبسالة . وفي اليوم التالي هاجمها الرومانيون فصدَّهم اليهود عنها وابقى أسبسيانوس رماة السهام ورماة الحجارة في اماكنهم خارج المدينة يرشقونها بسهامهم وحجارتهم وهاجمها هو بالرومانيين المشاة وصعدوا على هضبة يسهل الاستيلاء على الاسوار منها ورآهُ يوسيفوس فاوجس خيفة وخرج اليهِ برجالهِ وصدمهُ صدمة الابطال والجأهُ الى الابتعاد عن الاسوار. لكن اليهود خسروا قدر ما خسر الرومانيون لانَّ الاتفة قوَّت عزائم الرومانيون كما قوَّى اليأس عزائم اليهود. ولم ينفصل الفريقان الاَّ بعد ان خيَّم الليل عليهما. وقتل ثلاثة عشر من الرومانيين وجرح كثيرون وقتل سبعة عشر من اليهود وقتل ستمئة

وخرج اليهود في اليوم التالي وهم اشدُّ عزيمة مما كانوا بالامس وحاربوا الرومانيين مستبسلين وكان الرومانيون يحسبون اخذالهم في اليوم السابق انفلابًا لا يطيقونهُ فشمخوا بانوفهم وعزموا ان لا يعودوا في ذلك اليوم الاَّ منتصرين. الاَّ ان الحرب دامت سجالاً بين الفريقين حتى اليوم الخامس.

وكانت جنباتها مكتنفة بوادٍ عميق جدًّا من الشرق والغرب والجنوب ولا يوصل اليها الاَّ من الشمال حيث يتصل بها جبل فاقام يوسيفوس سورًا منيعًا حول هذا الجبل حينما حصَّن المدينة لكي لا يصل احد الى قنته

فلما رأى اسبسيانوس ان المدينة حصينة بالطبع حتى يتعذَّر الدنو منها عزم ان يشدِّد الحصار عليها لكي يضطرها إلى التسليم جوعًا. ودعا قوادهُ واستشارهم في ذلك فقرَّ قرارهم على ان يقيموا اكمة بجانب السور حتى يشرفوا عليهِ و يتمكنوا من المدينة . وارسلوا الجنود فقطعوا كل الاشجار التي حول المدينة وقاموا الصخور وحملوها وطرحوها بجانب السور فجعل اليهود يرمونهم بالنبال والحجارة لكي يصدوهم عن العمل اما هم فصنعوا سترات كانوا يستترون بها وهم يقيمون تلك الاكمة ونصبوا المجانيق والعرَّادات (آلات رمي الحجارة) امام المدينة وثيمنة ومئتون وآلات رمي الحراب والحراريق فانهالت المقذوفات عليها انهيال السيل وساعدهم الغرب رماة السهام والسوريون رماة الحجارة بالمقاليع . اما اليهود فلم يستسلموا للاقدار بل كانوا يخرجون من المدينة عصابات ويمزقون الاستار و يقتلون الذين يقيمون الاكمة و يحرقون الاشجار الموضوعة فيها. لكن

الاكمة ارتفعت وغاً عنهم حتى كادت تصل الى اعلى سور المدينة فجمع يوسيفوس عمّالهُ وامرهم ان يزيدوا ارتفاع السور وصنع لهم استاراً من جلود الثيران لتقيهم مقذوفات العدو فاعلوا السور عشرين ذراعاً وبنوا عليهِ ابراجاً كثيرة . ولما رأى الرومانيون ذلك وقعوا في حيرة واغتاظ قائدهم اسبسيانوس غيظاً شديداً وعزم ان يقتصر على محاصرة المدينة حتى يموت من فيها جوعاً او يسلموا لهُ

وكان في المدينة كثير من الطعام ولكن الماء كان قليلاً فيها لان اهاليها كانوا يشربون من ماء المطر يجمعونهُ في الصهاريج وكان الوقت صيفاً وخاف يوسيفوس ان يعوزهم الماء اذا طال الحصار فامر ان يشربوهُ بالقسط فقلقوا كأن الماء فقد كلهُ . وعرف اسبسيانوس ذلك فجعل ينتظر فراغ الصهاريج من الماء الآن يوسيفوس اراد ان يرتمهُ في التفوط من هذا القبيل ايضاً فامر ان تملأ الثياب بالماء وتنشر على الاسوار حتى يجري الماء منها . فلما رأى الرومانيون ذلك قالوا ان الماء لايزال كثيراً في المدينة والاَّ ما امرف اهاليها فيهِ فعزموا ان يهاجموها ويأخذوها عنوةً وهذا غاية ما كان اليهود يتمنونهُ لانهم يئسوا من نجاة مدينتهم فضلوا الموت في الحرب على الموت جوعاً وعطشاً

اما يوسيفوس فجعل يذكّر في الحرب من المدينة هو وبعض شيوخها واحثّ اهاليها بذلك فاجتمعوا حولهُ واخذوا يتوسلون اليهِ لكي لايتركهم . فادّعى انهُ انما يقصد الخروج من المدينة لكي يجمع الجليليين ويثيرهم على الرومانيين فيضطروا ان يرفعوا الحصار عنها ويجمعوهُ الى حيث ذهب وقال ان بقاءهُ في المدينة يدعو الرومانيين الى زيادة التشديد في حصارها لانهُ هو غرضهم الاول فاذا خرج منها لم يعد لها شأن عندهم . ولكن هذا الكلام لم يقنعهم بل زادهم هياجاً والتصاقاً بهِ وتوسلاً اليهِ

فرقّ لحالهم وخاف ان يؤخذوا بهِ اذا اصرَّ على الخروج من المدينة فعزم على البقاء فيها وتذرّع باليأس مثلهم وقال لهم الآن ابتدأنا الحرب حقيقة اذ قد قطعنا الامل من النجاة . والموت خير من حياة مرَّة فافعلوا ما يذكركم بهِ الحلف وموتوا موت الابطال . ثم جمع بعضاً من نخبة رجالهِ وخرج بهم من المدينة ورفع على الرومانيين فابلى بلاءً حسناً وفعل مثل ذلك في اليوم التالي والذي بعدهُ . وكان الرومانيون يخجلون من الحرب امام اليهود واذا صدُّوهم والجأوهم الى الفرار لم يستطيعوا ان يجروا وراءهم لثقل اسلحتهم . فسقط في يدهم ورأى قائدهم ذلك فخاف ان يفشلوا فتخلّ عزائمهم لانهُ لاشيء يضعف العزائم مثل الفشل كما ان النار تنطفئ ان لم تجد ما تأكلهُ . فامرهم ان يتجنبوا مناجزة اليهود بقدر طاقتهم وان يصبروا حتى

يفوزوا عليهم بلا حرب ولا قتال قائلاً " ان هؤلاء يحاربون لاجل حياتهم والحياة عزيزة فلا عجب ان اشتروها بكل مرتخص وغالٍ اما نحن فنحارب لتوسيع ممالكنا فليس من الحكمة ان نخاطر بانفسنا في هذا السبيل " ولذلك انتصر على صد اليهود بواسطة رماة السهام من العرب ورماة الحجارة من السوريين وعلى رشقهم بالحجارة من المجانيق والعرّادات(٢)

ومضت الايام على هذه الصورة واليهود يخرجون كل يوم من المدينة ويناوشون الرومانيين حتى سئمت نفس اسبسيانوس فعزم ان يدنو من الاسوار ويرميها بالكبش وهو خشبة كبيرة كمارية السفينة في احد طرفيها قطعة من الحديد ذات قرنين كرأس الكبش يربط من وسطه بالحبال ويعلق حتى يتدلى كقب الميزان ويمسك به عدد غفير من الرجال ويجذبونه ثم يدفعونه الى الامام فيقع على السور بعنف شديد فيهدمه او يثقره . ومهما كانت الاسوار منيعة لا تقوى على ضرب هذه الآلة الا زمناً يسيراً . فاقام المجانيق والعرادات لرشق الحجارة والرماة لرمي السهام حتى لا يستطيع احد ان يقف على الاسوار ثم ادنى الكبش منها وكان مستوراً بستار من الجلد المحبوكة والجلود وجعل يضرب السور به فيهتز من اساسه . ورأى يوسيفوس ذلك فخاف العاقبة وامر ان تملأ اكياس كبيرة بالتبانة وفوقها وتدلى عن الاسوار الى حيث يصيبها رأس الكبش حتى تصدّ فعله بروزها فجعل الرومانيون ينقلون الكبش من مكان الى آخر واليهود ينقلون الاكياس ايضاً فاتى الرومانيون بمناجل طويلة وجعلوا يقطعون حبال الاكياس بها فخرج يوسيفوس ورجاله من ثلاثة اماكن ومعهم مواد سريعة الالتهاب واضرموا النار في مصاف الرومانيين وآلاتهم . وصعد رجل اسمه اليعازار على السور ومعه حجر كبير جداً ورماه على الكبش فكسر رأسه الحديدي ثم وثب الى الارض وحمل الرأس وعاد به الى المدينة واصابته خمس نبال ولكنه لم يبالِ بها بل صعد الى اعلى السور ثانية حتى يراه الرومانيون . لكن الالم كان قد اخذ منه كل مأخذ فوقع ميتاً . واقتدى به رجلان آخران من الجليل فوثبا الى ما بين الرومانيين واشتغلا فيهم ثم تبعهما يوسيفوس برجاله واضرموا النار في مصاف الفيلق الخامس والعاشر واحرقوا آلاتهم . الا ان الرومانيين عادوا الى موانعهم قبل المساء ونصبوا الكبش ثانية وحينئذٍ رمى واحد من اليهود سهماً فاصاب به رجل اسبسيانوس فجرحه جرحاً خفيفاً فوقع الاضطراب في معسكر الرومانيين لانه شاع فيه ان فلاندم جرح فترك الجنود الحصار وبادروا اليه وجاء تيطس ابنه في مقدمتهم . وكان اسبسيانوس من الانفة وعزة

(٢) المجنيق آلة ترمى بها الحجارة والجمع مجانيق ومجانق ومجانيق والعرّادة اصغر من المجنيق ترمى بها الحجارة المزمى البعيد . اما الذي تغرز به الاسوار او تدك فاسمه الكبش كما مر .

النفس على جانب عظيم فاخفى ما به من الالم وحثّ رجاله على القتال فعادوا وكل منهم عازم ان ينتقم لهُ من اعدائهِ

وظلّ رجال يوسيفوس على الاسوار يرمون النار والحجارة على الرومانيين والرومانيون يرمونهم بالنبال والحجارة فلا يخطئونهم. وكانت الحجارة تندفع من المجانيق والعرادات كأنها القضاء المبرم فتنزع المتاريس من اماكنها وتثلم زوايا الابراج واصاب حجر منها رأس رجل كان واقفاً بجانب يوسيفوس فطارهُ من بين كتفيهِ ورماهُ على ثلاث غلوات منهُ وكانت امرأة حامل خارجة من باب بيتها فاصابها حجر بقز بطنها ونزع جنينها منهُ ورماهُ نصف غلوة. وعلا انين الجرحى وعويل النساء وامتزجا باصوات المقذوفات وردّدت الجبال الصدى حتى صمت الآذان وغشي على الاحداق من هول تلك المناظر. وتغر الكيش السور فسدهُ الرجال من الداخل بالحجارة والطين حالاً فبلغ التيت السلام عليهِ

ولما رأى اسبسيانوس ان الكيش تمكن من ثغر السور عزم على المزاحفة ودخول المدينة عنوة فانزل نخبة فرسانهِ عن خيولهم وجعلهم ثلاثة صفوف امام السور حيث ثغرهُ الكيش واوقف المشاة وراءهم وفرّق بقية الفرسان على التلال المحيطة بالمدينة لكي لا يهرب منها احد وصفّ عليها الرماة وامرهم ان لا يرموا نبالهم وحجارتهم حتى يسمعوا صوت البوق وتصب المجانيق والعرادات. وامر حملة السلالم ان ينصبوها حيث السور لم يزل سليماً لكي يصعدهم اهل المدينة فيبعدوا عن المكان المثغور. ورأى يوسيفوس ذلك فادرك غرض اسبسيانوس ووضع الشيوخ والضعاف على الجوانب السليمة من السور والشبان والاقوياء على المكان المثغور ووقف معهم وامرهم ان يسدوا آذانهم حينما يسمعون صراخ الرومانيين ويركعوا على ركبهم ويضعوا تروسهم فوق رؤوسهم لكي لا تصيبهم النبال حتى اذا فرغ الرماة من رميها ونصب الجنود السلالم ليتسلقوها هجموا عليهم مستقتلين لا لكي يحموا انفسهم ويدافعوا عن مدينتهم بل لكي يقوموا منهم مقام سياط توجع بهم وبنسائهم واولادهم

ثم نُفخ في البوق وعلا ضجيج الرومانيين وانهالت النبال على المدينة انهيال السيل حتى اظلم بها الجو وركع رجال يوسيفوس كما أمرهم ولما رأوا السلالم تنصب على الاسوار خرجوا اليها وناجزوا رجالها يداً ليد مستبسلين الاّ انهم كانوا قلالاً فاذا قتل بعضهم لم يأتمر من يقوم مقامهُ بخلاف الرومانيين فانهم كانوا كثاراً فهجموا معاً ولما وصلوا تروسهم بعضها ببعض حتى صارت كالبناء المرصوص. فلجأ يوسيفوس إلى حيلة فتقتها لهُ الحاجة وهو انهُ امر ان تضرم النار وتغلى الزيت ويصب على الرومانيين غلياناً وكانوا قد تسلقوا السلالم فدخل الزيت

بين دروعهم وابدانهم وحرق لحمهم فوقعوا يتمرغون في التراب من شدة الالم ووقع التشويش في صفوفهم كلها لكنهم لم يرتدّوا متخاذلين بل عاودوا الكرّة بعزيمة اشد فقتل اليهود يزر الحلبة وصبّوه على الدلالم فصار الصاعدون عليها يزلقون ويقعون فعبل صبرهم واعيتهم الحيل . وقُتل وجرح من الرومانيين خلق كثير في ذلك اليوم واما اليهود فلم يقتل منهم سوى ستة وجرح ثلثمئة

واراد اسبسيانوس ان ينهض همم رجاله في المساء فوجدهم مجتهدين غيظاً عازمين ان يفتحوا المدينة ولو فنوا عن آخرهم . فامرهم ان يصنعوا ثلاثة ابراج من الخشب ارتفاع كلٍّ منها خمسون قدماً ويصفحوها بالحديد من كل جهاتها لكي لا تعمل النار بها ووضع فخة الرماة في هذه الابراج ونصب عليها العرّادات لرمي الحجارة واكثر من رمي التراب فوق التلال التي اقامها اولاً بجانب السور فارتفعت ونصب الابراج عليها قاطلٌ من فيها على المدينة وصفائح الحديد تقيهم وجعلوا يرمونها بالسهام والحجارة فترك اليهود الاسوار واخذوا يخرجون من المدينة ويدفعون الرومانيين عنها كلما قصدوا دخولها

وفي اليوم السابع والاربعين من حصار المدينة كانت التلال التي نصبها الرومانيون امامها قد صارت اعلى من اسوارها وفي ذلك اليوم هرب واحد من المدينة ومضى الى اسبسيانوس واخبره عمّا حلّ باهلها من الغناء والوهن وانهُ يسهل دخولها في المزيع الاخير من الليل حينما يرين الكرى على الحرّاس فلم يصدقهُ اسبسيانوس لما رآهُ من اماتة اليهود ويُعدهم عن الخيانة لكن كلامهُ كان معقولاً ولا خوف من تصديقهِ فامر ان يُحتفظ بهِ وان يستعد الجنود لتهيبت المدينة في المزيع الاخير من الليل

ولما جاءت الساعة زحفوا من غير صوت حتى بلغوا السور فصعد عليهِ طيطس اولاً مع بعض رجالهِ وقتلوا الحرّاس ودخلوا المدينة وتبعهم غيرهم ولم يدرِ بهم احد لان الجميع كانوا نياماً من شدة التعب فوضعوا السيف فيهم ولم يرحموا احداً . وقتل كثيرون انفسهم بايديهم لكي لا يقتلهم الرومانيون ولجأ بعضهم الى برج في الجهة الشمالية من المدينة وتحصنوا فيهِ ففتحهُ الرومانيون عنوةً وقتلوهم ولم يستحيوا ممن وجدوهُ في المدينة غير النساء والاطفال وكانوا اثني عشر الفاً فبوهم . وقُتل من اليهود في فتح المدينة وفي حصارها اربعون الفاً . وامر اسبسيانوس ان تهدم كل البيوت والابراج والاسوار فهدموها . وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة من ملك نيرون واليوم الاول من شهر تموز

وهرب يوسيفوس من الرومانيين حينما دخلوا المدينة ورمى نفسهُ في بئر عميقة منها كهف كبير واختفى في ذلك الكهف وفي هناك اربعين رجلاً مختبئين ومعهم طعام يكفيهم بضعة

ايام . وكان يختبيء نهارًا ويخرج ليلاً يفتش عن مكان يهرب منهُ . وفي اليوم الثالث دلَّت عليهِ امرأة فارسل اسبسيانوس اثنين من قوادهِ وامرهما ان يؤمناهُ على حياتهِ ويأتياهُ بهِ فلم يثق يوسيفوس بكلامهما لانهُ حسب ان من فعل فعالهُ مع الرومانيين لا يُقتل انهم يستحيونهُ وحسب انهم انما يغرونهُ على الخروج لكي يقتلوهُ . ثم ارسل اليهِ اسبسيانوس قائدًا ثالثًا اسمهُ نيكانور وكان صديقًا ليوسيفوس من عهد قديم فجعل يصف لهُ حلم الرومانيين على الذين يقهرونهم وقال لهُ انك فعلتَ فعل الابطال ولذلك فالقواد الكبار في معسكر الرومانيين لا يكرهونك بل يحبون بسالتك وقائدهم الاكبر طلب ان يُؤتى بك اليهِ حيًّا لا لكي يقتلك لانهُ يقدر ان يقتلك ولو لم تستأمن بل لكي يستحييك لانهُ يأنف من قتل رجال الشجاعة والعزم وانهُ لو اراد ان يحتال عليك لما بعث اليك بصديق من اصدقائك لانهُ ليس بالرجل الذي يحمل الصديق على خداع صديقهِ وانا نفسي لم اكن لآتي اليك لو كان في الامر خيانة

ولما تردَّد يوسيفوس في قبول ما عرضهُ عليهِ نيكانور اغاظ الجنود الرومانيون الذين كانوا هناك وعزموا ان يرموا الحطب في الكوخ ويحرقوهُ الاَّ ان نيكانور منعهم من ذلك

وبعد جدال طويل اقتنع يوسيفوس بان الله يريد لهُ الحياة لا الموت فعزم ان يسلم نفسهُ للرومانيين ولما رأى رفاقهُ ذلك احاطوا بهِ وقالوا لهُ "الآن تثن نواميس الآباء ويسخط الله الذي خلق نفوس اليهود من معدن يحتقر الموت . فهل انت راغب في الحياة يا يوسيفوس وهل تستطيع ان ترى النور وانت عبد ذليل . ما اسرع ما نسيت نفسك وكم من رجل اقنعت لكي يضحي حياتهُ على مذبح الحرية . لقد كذب من قال انك رجل وانك حكيم اذا كنت ترجو ان يبقى عليك الذين عاملتهم هذه المعاملة . ولكن ان كانت مواعيد الرومانيين تسيلك نفسك فنحن لا ننسى مجد آبائنا . اذا كنت تموت باختيارك فتموت قائدًا لليهود والاَّ فتموت ميتة خائن" قالوا ذلك واستلوا سيوفهم وجعلوا يتهددونهُ بها

فخاف يوسيفوس ان يقتلوهُ فيموت كخائن فقال . ايها الاخوة لماذا تريدون ان تنتحروا ولماذا تطلبون ان تفرق بين اجسادنا ونفوسنا . من منكم يقول انني تغيرتُ . الموت في الحرب شجاعة اذا قُتل الانسان بيد خصمهِ . فاذا هربت من سيف الرومانيين فانا جبان وقد حقَّ عليَّ ان اقتل نفسي بيدي واما اذا كان الرومانيون يستحيون عدوهم فذلك العدو اولى باستحياء نفسهِ . ومن الحماقة ان يفعل الانسان بنفسهِ ما يخاصم غيرهُ على فعلهِ بهِ . ولا شك ان الموت في سبيل الحرية شرف عظيم ولكن يشترط ان يكون ذلك في الحرب وبيد الذين يريدون نزع الحرية منا ولكن اعدائنا ليسوا امامنا الآن في ميدان القتال ولا هم

طالبون قتلنا . ومن يشاء ان يموت حينما لا يُطلب موتهُ فهو جبان كمن يشاء ان يحيا حينما يجب موتهُ . ومن اي شيء نخاف اذا سلبنا انفسنا للرومانيين أمن الموت وان كان الامر كذلك افنتوقع بانفسنا ما نخاف ان يرتكبهُ الغير بنا . وقد يقول قائل اننا نخاف الاسر والاستعباد . فهل نحن احرار الآن . وقد يقال ان الافتخار دليل الشجاعة . كلاَّ ثم كلاَّ الرجل الشجاع لا يفتخر والذي يفتخر في هذه الحال جبان كالربّان الذي يغرق سفينتهُ خوفاً من الزوابع . والافتخار لا تعرفهُ طوائف الحيوان وهو اعتداء على الخالق جلَّ جلالهُ وما من حيوان يموت باختياره لان حب الحياة فطرة في النفس ولذلك نحسب الذين يحاولون نزعها بنا اعداء لنا ونتقم منهم . أوَلا تظنون ان الله يغضب اذا احتقرنا ما وهبنا اياهُ فان منهُ وجودنا وهو الذي ينزعهُ منا . واجساد الناس كلها فانية ومصنوعة من المواد الفانية ولكن النفس خالدة وهي جزء من الله . من يتلف وديعة اودعهُ اياها انسان آخر يعدُّ خائناً حانثاً فان كنا ننزع من اجسادنا ما اودعها الله فهل تحسبون انهُ لا يعلم ذلك . واذا كان العبد الآبق يعاقب ولو كان سيدهُ شريراً فكيف ننجو نحن اذا هربنا من الله سيدنا . ألا تعلمون ان الذين يتركون الحياة الدنيا بحسب الشرائع الطبيعيَّة ويردُّون الوديعة التي اودعهم اياها الله حينما يستردها يتمتعون بالمجد الابدي تثبت بيوتهم وذريتهم وتطهر نفوسهم وينالون المحل الاعلى في السماء ومن هناك يُبعثون في اجساد طاهرة . واما نفوس الذين قضوا على انفسهم بايديهم فتنزل الى اظلم مكان في الجحيم والله ينتقم من الذين يسيئون الى النفس او الجسد في ابنائهم . فالله يكره الافتخار وشريعتنا تحرّمهُ لانها تفرض على الذين يفتخرون ان تبقى جثثهم بلا دفن الى غروب الشمس مع ان الدفن مشروع علينا حتى لاعدائنا . وشرائع الامم الاخرى تحكم بقطع يمين من يفتخر لانهُ استعملها في قتل نفسهِ . ولذلك يليق بنا ايها الاخوة ان نتعقَّل ولا نزيد على البلايا التي ابتلانا بها اعداؤنا العصيان على خالقنا . فان كنا نريد ان نحيا فالسبيل مفتوح امامنا ولا نحتقرنَّ ابقاء العدو علينا بعد ان ناصبناهُ العداوة . واذا كنا نريد ان نموت فلنمت بيد الذين تغلَّبوا علينا . واني اودُّ من صميم الفؤاد ان يحوطنا الرومانيون لانهم اذا تغلبوا بعد ان امَّنوني اموت مسروراً اذ يثبت لي انهم سفلة خائنون وذلك يعزيني اكثر مما لو تغلَّبتُ عليهم

وبمثل هذا الكلام حاول ان يصرفهم عن الافتخار اما هم فسدوا آذانهم وهجموا عليهِ بسيوفهم فجعل ينادي هذا باسمهِ وينظر الى ذاك نظر الرئيس الى مرؤوسهِ ويسك ذلك بيده ويكلمهم بلطف وكانت هيبةٌ في نفوسهم تشلُّ ايديهم واخيراً قال لهم اذا كان لا بدَّ من الافتخار فلتلقِ قرعة ومن اصابتهُ القرعةُ اولاً يقتلهُ الذي تصيبهُ القرعةُ ثانياً وهذا يقتلهُ الذي

تصيبهُ القرعةُ ثالثٌ وهلمَّ جرًّا فلا يُقتَل احد يدري . فاستحسنوا هٰذا الرأي والقوا القرعة وقتلوا واحدًا بعد الآخر حتى لم يبقَ الاَّ هو ورجلٌ آخر فاقنعهُ بالاستسلام للرومانيين واستأمنا . وأُتي بهِ الى امام اسبسيانوس فأبأهُ بانهُ سيخلف نيرون على سرير الملك . ولم يصدقهُ اسبسيانوس اولاً ولكنهُ احتفظ بهِ وعاملهُ بالرفق ثم تمَّت نبوَّتهُ كما سيجيء

جواهر الاجسام

تمهيد

وقع نظرنا على النشرة الاسبوعيَّة الصادرة من مدينة بيروت في الثالث عشر من مارس (اذار) ونحن نفتش عن موضوع نفتتح بهِ هٰذا الجزء فوجدنا فيها منتخبات شعريَّة من اقوال الاطباء والحكماء ومنها ابيات للشيخ الرئيس ابن سينا قال فيها

خير النفوس العارفات ذواتها وحقيق كيَّات ماهياتها
وبمَ الذي خلقت وبمَ تكوَّنت اعضاء بنيتها على هيئاتها
نفس النبات ونفس حسٍّ ركبا حلاَّ كذاك مهانةً كسماتها

نقلنا تُرى ما كان يقول الشيخ الرئيس لو بُعث الآن حيًّا ورأى سكرسكوبًا يكبِّر قطر الجسم ثلاثة آلاف ضعف ويُرى بهِ سطحهُ اوسع مما تراهُ العين المجرَّدة بتسعة آلاف الف ضعف . اما كان يصفق بيديهِ كما صفَّق ارخميدس حينما صعد من الحمام عاريًا وقال وجدتها وجدتها أَوَما كان يهرع بذلك الميكرسكوب ليرى بهِ الجواهر الاصليَّة التي تتركَّب منها اجسامنا واجسام كل حي ويعلم "بمَ تكوَّنت اعضاء بنيتها على هيئاتها وحقيق كيَّات ماهياتها" ويشاهد بعينيهِ ما مات هو وكل الفلاسفة السابقين وفي نفوسهم شيء منهُ ولم ينجلِ للناس الاَّ في هٰذا العصر بعد ان صُنع الميكرسكوب وبُني العلم على اسس البحث والامتحان والمشاهدة

نبذة تاريخية

واول مَن بحث في بناء الاجسام الحيَّة بالميكرسكوب رجل انكليزي اسمهُ هوك وذلك في اواسط القرن السابع عشر (سنة ١٦٦٧) اي منذ مئتين وثلاثين عامًا وكان ينظر الى قطعة رقيقة من الفلِّين فرأى فيها تجاويف صغيرة منفصلة بعضها عن بعض باغشية رقيقة فسمَّاها